

انطوان مسعود — النسر الكريم — بيت الحكمة

منشوراتنا القصصية

يصدرها : بيت الحكمة - بيروت

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود
٣	حدثني يا ابي	لكامل العبد الله
٤	اسرى الغابة	لانطوان مسعود
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود
٦	يوم عاد ابي	لرشاد دارغوث
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريّب
٨	جدتي	لجبران مسعود
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني
١٠	عازفة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود
١٦	المغني الكبير	لروز غريّب
١٧	جلجامش	لتوما الخوري
١٨	نور النهار	لروز غريّب
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود
٢١	النجمتان	لروز غريّب
٢٢	اين العروس	لجوزفين مسعود
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصر الله
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد
٢٥	النار الخفية	لروز غريّب
٢٦	الحاج بجبح	لرشاد دارغوث
٢٧	جوهرة الجواهر	لجوزفين مسعود
٢٨	دهليز الغرائب	لفكتور حكيم
٢٩	التجاريب	لولي الدين يكن
٣٠	الصحائف السود	لولي الدين يكن
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	(٦ كتب للاطفال)
٣٢	كوب من العصير	لجوزفين مسعود
٣٣	المنجّم « عصفور »	لروز غريّب

الثمن ٢٠٠ ق.ل.

انطوان مسعود

النسر الكريم

خمس روائع من قصص الحيوان

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « زكريا كايا »

الطبعة الثالثة ، بيروت – لبنان ، تمــوز (يوليو) ١٩٧٥



النسرُ الكريم

كان الملكُ يسير مضطرباً يذرع غرفته ذهاباً وإياباً ، والليلُ يسير في دورته الطّويلة سيراً وَئيداً رتيبـــاً ، حتى كاد الفجرُ أن يَنْبَلِجَ . عندئذ جلس الملك أمام

الشُّرفة يَرْقبُ إطلالةَ النُّور بخيوطه البيضاء النَّقيَّة. وراحت آخرُ حبَّاتِ الظلام تَندثِر وتتلاشى. وهبَّتْ مع الصبح الجديد نسمةٌ عَليلة تُداعب وجهَ المَليك التَّعِب، تحمِل معها عِطْراً نَدِيًّا قطفَتْه من حديقة القصر الغَنَّاء. فتراخى الملك منتعشاً، وانسدلَ جفناه بعد طولِ سُهادٍ، فهامَ في عالم الأَحلام.

شاهد الملك في غَفْوَته القصيرة حُلماً رهيباً: كان جالساً على عَرشه يُحيط به الأَعيانُ ورِجالاتُ القصر. وفجأةً هَبَطَ من السَّماء طيفٌ أسودُ انقضَّ عليه وانتزع التَّاجَ عن رأسه. ومدّ الملك يديه ليُمسك بتاجه، ولكنَّ الطيف الأسود اختفى مخلّفاً وراءه قهقهاتٍ تُصِمُّ الآذان.

هبَّ الملك من نومه مُرتاعاً وقد سمع قَرْعاً شديداً

على باب غرفته. إستأذن القارع بالدخول، فإذا هو طبيبُ القصر الذي انحنى أمام سيِّده، وقال مبتسماً:

ــ مولاي، جئت أُبشِّرك بحدَث عظيم: إنّ مولاتي الملكة وضعت طفلاً رائعاً، وهما، والحمدُ لله، بألف خير!

إنفرجت أسارير الملك، فشكر طبيبه، ثمّ أذِنَ له بالانصراف. وما إن اختلى الملكُ بنفسه حتى راح يَضحكُ كالأطفال وقد غمرت قلبَه سعادةٌ عارمة: أخيراً جاء وليُّ عهده إلى العالم بعد انتظارٍ مُقلِق طويل دام سَبْعَ سَنَوات! ونسِي الملك حُلمَه المزعج، فارتدى ملابسه وقَصَد للحال إلى جَناح الملكة.

قبَّل الملك زوجه وهنَّأها، وهو لا يُطيقُ صبراً على مشاهدة الأمير الجديد. وحنا الأبُ السَّعيد على

السّرير بعينين ملؤهما الحبُّ والحنان . ونظر إليه الطّفلُ ، فتعانقت أنظارُهما عناقاً طويلاً . وتفحّص الملكُ طفلَه فإذا الصبيّ آيةُ حسنٍ وكمال : وجنتان وَرْدِيّتان ، عينان عريضتان ، قَسَماتٌ متناسقة ظريفة ؛ بيد أنّ أمراً عجيباً استوقف الملك وأثار دهشته : لقد كان رأس الطفل مكلّلاً بشَعرٍ أبيضَ ناصعٍ كالثّلج الذي يغطّي قِمم الجبال .

سُرَّ الملكُ بطفله الجميل ، ولكنَّ ذلك الشعرَ الشّائب الشاذّ أقْلَقَه وأحزن قلبه . وكانت الملكة تشعر كذلك بغَرابة الأمر ، ولكنَّ أحداً منهما لم يَنْبِسْ بكلمة . وانصرف الملك من جناح الملكة وهو سعيدٌ وحزينٌ في آنٍ معاً .

أمر الملك بإقامة الأعياد في أرجاء المملكة ثلاثةَ أيّام . واحتفل الجميع بمولد الطفّل الملكيّ . ثمّ

راج بين النّاس خبرُ الرأس الصغير الشائب ، فسَخِروا ، وشمِتوا ، واستعاذوا بالله !

علِمَ الملكُ بموقف رعاياه ، فحلَّ الغمُّ في قلبه مكانَ الفرح . فبقي كلّما ذهب ليزور طفله يستغرب حاله أكثَر فأكثر . وذاتَ مرّةٍ وقف الملك يخاطب الوَليد البريء بحنانٍ ، قال :

ـ سُبْحانَ الله! إنّكَ جميلٌ ، كاملُ الخِلْقَة ، لا عيبَ فيكَ سوى شعرِكَ الأبيض العجيب ! إنّ رأسك الشّائب يجعلُكَ تُشبه العجائزَ المُسنّين !

مضى اليوم الأوّلُ من الاحتفال بمولِد الأمير العجيب . وأطلَّ اليوم الثاني والملكُ يفكّرُ بابنه ، فتَخْتَلِجُ في نفسه عواطفُ متناقضة . في البدء كانت تخامره مشاعر الرّهبة والشّفقة : فما شأنه هو ، والله وحدَه قد شاء أن يكون الأمير الصغير على تلك الصّورة ؟ ولكنّ الشفقة استحالت غيظاً شيئاً بعد شيء ، فراح يردّد في نفسه : « كيف

يرضى رعاياي بهذا المخلوق العجيب مليكاً عليهم من بعدي ؟ » وفي اليوم الثالث من الاحتفال كان قلب الملك قد جفَّ وقسا ، فجلس في معزل عن الناس يردِّد في سرِّه ، وفي قرارة نفسه شعور بالخيبة والعار :

ــ لا ، لن أرضى بهذا الواقع المخجل ! هذا الصبيُّ لن يكون يوماً ملكاً على شعبي . لن أدَعَ العامَّة يسخرون بي ، أنا الملك القويّ العظيم !

بعد أيّامٍ كان الملك المغرور قد أتى إلى قرارٍ حاسم : يجب التخلُّصُ من الأمير بأيّة وسيلة . وغدا الملك يخاطب نفسه فيقول : « بهذا ينسى الجميع ما كان من أمر هذا المخلوقِ الرهيب ، وتعود الملكة إلى إنجاب بنينَ أصِحّاء يؤمّنون سُلالة المُلْك » .

في عَشيَّة أحد الأيّام استدعى الملك أحدَ خُدّامه المخلصين ، وأمرهَ بأن يحمل الأمير الصغير خِلسةً إلى البرّيّة

ويطرحه فيها ليموت . وارتاعَ الخادم من هَوْل الخبر ، ولكنّه لم يتجرّأ على مخالفة سيِّده . حملَ الطفلَ المسكين بين ذراعيه ، وما زال ساعياً تحت جُنح الليل حتى بلغَ سَفْحَ جبلٍ يَبْعُدُ أميالاً عن المدينة . كان المكان مُقفِراً مُوحِشاً ، فوضع الخادم أميرَه الطفل عند جِذْع شجرةٍ ، ثم عاد أدراجَه من غير أن يراه أحدٌ ، وهو يبكي عاجزاً متحسِّراً . وبقي الرَّضيعُ في العَراء ينظُر إلى النجوم المتلألِئة في كَبِد السماء مبتسماً ثاغياً ...

نام الطفل طوالَ الليلِ وهو بالطّبع لا يُدركُ ماذا حلَّ به . ثم أفاق مع الشروق وكأنّه يترقَّبُ مَن يقدِّم له الحليبَ كالمعتاد ، ولكنْ لم يَأْتِهِ أحد . بكى ، وعلا صراخُه ، فسمعَه نسرٌ كبير كان يحلّق في سماء تلك البُقْعة . نظر النَّسرُ بعينيه الثاقبتَين فشاهدَ الطفلَ وظنَّه حيواناً صغيراً ، فانقضَّ عليه ليحمِلَه إلى عُشِّه طعاماً لفراخه . ولكنَّ النَّسرَ تسمَّرَ دهشةً لَدى مشاهدتِه طفلاً بريئاً ، بثيابٍ

زاهية، يَبكي بكاءً مرّاً، وهــو عاجزٌ عن الحَراك والتّعبير ...

كان ذلك النّسر طائراً حكيماً وَهبه اللهُ مَقْـدِرَةً على النُّطق بلسان البَشَر، وعلى معرفـةِ نِيّاتهـم وأسرارهم. وكان عشّه واسعاً مُريحاً في أعلى قِمَّةٍ من قمم ذلـك الجبلِ الوَعْر الشاهِق. ولمّا شاهدَ النَّسرُ الطفلَ على تلكَ الحالِ رقّ له، فحمله بمَخالِبـه، ثم



النسر يلتقط الطفل ويحمله

طار به إلى عشّهِ.

وَضع النسر أميرَنا الصغير بين صِغاره، وقال لهم:

— جِئتُكُم اليومَ بهديَّةٍ نادرة. هذا الطفلُ ابنُ ملك مغرور، جارَ عليه والدُه فأنكره وتخلّى عنه. أُريدكم أن تُحسِنوا معاملتَه، وأن تُحبُّوه كَواحدٍ منـكم.

منذ ذلك الحينِ أخذ النّسر يُعنى بالأمير عِنايتَه بصغاره. كان يَختار له من القُوت ما يلائم سِنَّه وتَكوينَه. كان يَقطِف له الثِّمارَ الناضِجة، ويأتيه بالعَسَل اللذيذ المُغذّي، أو بحليب الماعز يَختَلِسُه من آنيةِ الرُّعاة في الجبال المجاورة، ويَختَزِنُه بِمنقاره الأَجوفِ المَعْقُوف. ثم راح النسر الحكيم يُعلِّم رَبيبَه النُّطقَ بلسان الناس، ويلقّنه طُرُقَ معيشتهم. وأمّا النّسورُ الصّغار فقد أحبّوا ضيفهم مَحبَّةَ الأَشِقّاء لشقيقٍ صغير.

وتعاقبت السّنونَ على هذه الحـال ، فإذا بالأمير العجيب شابٌّ قويّ جميل الطَّلعَة . وزاد شعرُه الأبيض نموّاً وطولاً ، فانسَدَل كثيفاً على كتفَيه . وكان الأمير سعيداً في أحضان الطبيعة ، يُبادل إخوانه النُّسورَ العَيشَ والمودَّة .

★

في تلك الفَتْرةِ كان الملك قد طَعَنَ في السِّنّ . وأمّا الملكةُ الأمّ فقد أقعدَها الغَمُّ والشقاء ، فانزوَتْ في جناحها تُفكِّر أبداً بوحيدها البريء . وكان الملك قد نَدِمَ وأدرك هَولَ صَنيعِه ، فبدأ بإصدار الأوامر للبَحث عن الأمير . وبحَث الجنود شهوراً ، غير أنَّهم كانوا يعودون خائبين مرَّةً تِلوَ الأُخرى ، إلى أن فقَدَ الملِكان كلَّ رَجاءٍ في العثور على ولدهما . ولم تُنجِب الملكةُ أولاداً غير ابنها الأوّل ، فعاش الزوجان الملكيّان

في حالٍ من التعاسة لا توصَف .

كان الحلمُ الرّهيب يتردَّدُ على الملك تَكراراً فيزيد اضطرابه وشقاءه . فهو ما زال يرى ذلك الطَّيفَ القاتِم ينقضُّ من السماء وينتزع منه التاج : فالتاجُ هو الأمير الصغير عينُه ، وفُقدانُ الأمير يَعني انقراضَ السُّلالةِ الملكيّة .

★

كان بعض المسافرين يجتازون السهلَ عند أقدام الجبل ، فتوقفوا في مكانٍ ظَليل للاستراحة . وحانت منهمُ التفاتةٌ إلى القمّـة فرأوا عشّ نسورٍ بدا وكأنّه معلّقٌ بين السماء والأرض . وشاهدوا شابّاً يَسير فوق الجُرُوف ، يَلِجُ العُشَّ ويخرُج منه كما يفعل الناس في منازلهم . وبلغ المسافرون المدينةَ فتحدّثوا عمّا شاهدوه فوق الجبل . وذاع الخبرُ حتى بلغ أحدَ

خُدّام القصر ، فسارع يَنقلُ القصّة إلى الملك. ثمّ إنّ الملك شاهد في تلك الليلةِ حلماً غريباً : فارسٌ جبّار مدجَّج بالسلاح ، قادمٌ من الجبال ، يقف أمامَه ويؤنّبه بقَسْوةٍ فيقول :

ـ أيُّها الملكُ الأحمق ! لقد حكمتَ على وحيدِك بالموت بسبب شعره الأبيض . خَشِيتَ سُخريةَ الناس ، فألحَقْتَ بنفسك العارَ . وزاد في خِزْيك أنّ طائراً من الجوارح قد حَضَنَ وحيدك وربّاه بالعاطفة والحنان ، بعدما حرمته أنت منهما . إنّ عهدك بالضّلالة والقسوة قد طال . هَلُمّ انهضْ وأسْرِع وراءَ ابنك الضالّ !..

صحا الملك مرتبِكاً مضطربَ الفكر . وللحال دعا حكماء القصر ومستشاريه فأطلعهم على حلمه . نهض كبيرُ

المستشارين ، وهو شيخٌ جليل حكيم ، فقال للملك :

ـ ليس الحلم الذي شاهدتَه لَغزاً يا مولاي . إنّ الفارس الذي أقبل عليك يوبِّخك ليس غيرَ صوتِ ضميرك . إنّها ساعةُ الحقّ قد حانت . مُر الجنود بالسير من غيرِ توانٍ . وإن كان الله قد كتب النَّجاة لأميرنا ، فرجوعُه لا ريب قريبٌ !

شكر الملك مجلِسَه ، وقام إلى إصدار الأوامر ، وعاد الأمل يختلج في صدره .

تدفّق الجيش من أبواب المدينة يجتاح السهل كالسّيل . وراحت الخيلُ تَنْهَبُ الأرضَ حتى بلغت أقدام الجبل . وأعطى الملك إشارةَ التوقّف ، فهَمَدت الأنفاس وشَخَصت الأبصار .

إستقام الملك فوق صَهْوةِ جواده يتفحّصُ الجبل مَلِيًّا . وأنْعَمَ النظرَ في القمّة فرأى نسراً كبيراً رابضاً

فوقَها، وبقربه شابٌّ فارعُ الطُّول ينظر إلى السهل مستطلِعاً. وكانت نسائِم الجبل العالي تداعب شعر الشابّ الذي انسدل على كتفيه طويلاً ناصعَ البياض.

أيقن الملك لتوِّه أنّ ذلك الشابَّ لم يكن غيرَ ابنِه الطّريد. فترجَّلَ عن مطيَّته متأثّراً، وشرَع يدور حول السَّفح لاكتشاف ممرٍّ نحو القمّة. ولكنّ الجبل جُروفٌ وَعْرَة، وصخورٌ مسنَّنَة، والمسالكُ مفقودة تماماً. فخرَّ الملك على ركبتيه يقبّل الأرضَ باكياً، ويطلُب العونَ من الله.

واستجاب الله دعاء الملك. فعندما شاهد النّسرُ جنودَ المملكة قادمين للبحث عن الأمير، التفت إلى ذي الشعرِ النّاصع وقال:

ـ يا بنيّ، لقد أحبَبْتُك طوالَ هذه السنوات حُبّي

لصغاري، وكنتَ مدْعاةً لفخاري، وبقيتَ لي خيرَ محبٍّ وصديق بعدما طار إخوانك النُّسور، أبنائي، كلٌّ في سبيله. ولكنّ الله الذي يَحكُم الناسَ جميعاً شاء أن يكون اليومُ يومَ فراق. أنظرْ إلى السهل، أترى ذلك الجيشَ الغفير؟ إنّ والدك الملكَ على رأسه، جاء في طلبك. وفي المدينة، هناكَ، تاجٌ ملكيّ ينتظرك ليَرْقَى بك إلى العرش. ولَسَوْفَ يَهَبُك الله في شؤون الحكم مقدِرةً وحكمة، وسيهتِف رعاياك لاسمك بالثَّناء والإطراء...

ظنَّ الشابُّ أنّ النسر يريد الخلاصَ منه، فحزن وبكى. وعاد النسر بحكمته يوضح الأمرَ للأمير، وحالُه في التأثُّر لا تَقِلُّ عن حال ربيبه. ثم تعانق الاثنان طويلاً وهما يذرِفان دموع الوَداع.

إلتقط النسر أميرَه بمخالبه وطار به إلى حيث كان

الملك جاثياً يصلّي . إنحنى الملك أمام النسر شاكراً ، يَستَنْزِلُ عليه البرَكات . وعاد الطائر إلى الرّفرفة وطار من غير تريُّث ، فغاب عن الأنظار فوق القمّة العالية .

إستدار الملك نحو ابنه فوجده شابّاً جميلَ الطَّلعة، صُلْبَ العود ، لا يَعيبُه غيرُ شعرِه النّاصح الطَّويل.



اللقـــاء

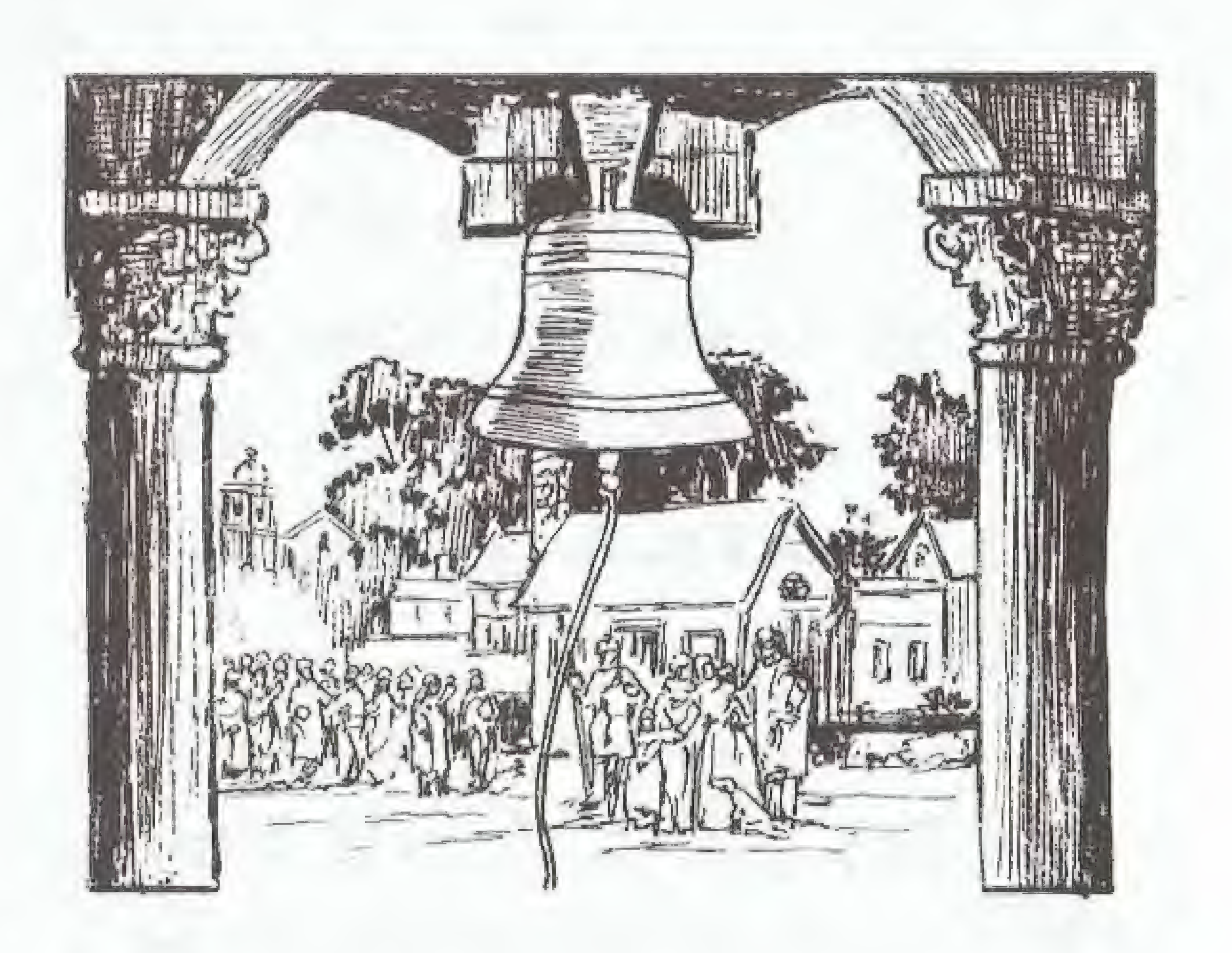
وخفق قلب الوالد اعتزازاً ، فاحتضنَ ابنَه يقبّله ويبكي . وهتف الجنود والأتباعُ بحياة الملك والأمير ،ثم تحرّكت الصُّفوف ، والأمير العجيب راكبٌ في المقدّمة ، عن يمين والده . وبلغت طلائع الجيش بابَ المدينة تحمِلُ البُشرى إلى الرّعايا ، فأسرعَ الأهلون لمُلاقاة الأمير الطَّريد ملاقاةَ الأبطال .

وأمّا لقاءُ الملِكة الأمّ ووحيدِها فقد كان مؤثّراً يفوق حدَّ الوصف . وفي رَوْعَة اللقاء امتزجت دموعُ الفرح في مُقلة الأميــر الشابّ بدموع الحزن لفراقه نسرَه الحبيب .

*

بعد سنوات تنازل الملك عن العرش للأمير الشابِّ الشّائب . وحكم الملك الجديد بالعدل والمساواة . وخلال تلك الفترةِ لم يَنْسَ مخلّصَه ومربّيه دقيقةً واحدة . فقد ظلّ

الحنين يشدّه إلى المكان الذي تَرَعْرَعَ فيه ، فيعود اليه ليقضي فيه ساعات حلوة . وهناك كان الملك والنسر الكريم يلتقيان عند أقدام الجبل الشامخ ، فيتبادلان الذّكريات .
وكان النّسر الحكيم يُسدي لمليكه الحبيب النُّصحَ والإرشاد .



الجَـوادُ المَظْـلُوم

كان في إحدى المُدُنِ مَلِكٌ حَكيم عادل ، يسعى دائماً إلى حِفظ الأَمن والعدالةِ بين رَعاياه كافَّةً . وكان القُضاة في مملكته الصَّغيرةِ يَنظُرون في شُؤون الناسِ

بالرّفق والإنصاف ، فينصرون المظلومين ، ويُعاقبون الظّالمين ، بلا تمييز بين مكانة ومكانة ، أو طبقةٍ وأخرى .
فكان الرّعايا ، والحالُ هذه ، يَنْعَمُون في المدينة بالرّغد والسّعادة . هم مُتساوُونَ أمامَ القانونِ في جوٍّ حافل بالطمأنينة ، يحصّل كلٌّ منهم رِزْقه حلالاً .

ولكي يتمكّن القضاة باستمرار من إشاعة الأمن في المدينة ، كان عليهم أن يَبْقَوا ساهرين على الشّعب في كلّ لحظة ، لينصرفَ الناس إلى أعمالهم آمنين . وفيما كان الملك يفكّر ذاتَ يومٍ بوسيلة مناسبة تحقّق له وللقضاة معرفةَ أحوالِ الرعيّة وشكاواهم ، خطَرتْ بباله فكرةٌ طريفة : أمرَ بصَنْع جَرَسٍ كبيرٍ رنّان ؛ وأمرَ كذلك ببناء نُصْبٍ مَتينٍ تَعلُوهُ قُبّةٌ عريضة في ساحة المدينة . فلمّا تمَّ صنعُ الجرس وبناءُ النُّصب ، أمر برَفْعِ الجرس فوقَ القبّة ،

فرُفِع . وفي تلكَ الأثناءِ كانَ السّكّانُ ينظرون بدَهشةٍ إلى سَيرِ الأعمال في السّاحة . لم يَرَوا شيئاً كهذا من قبلُ ! ما الغايةُ من ذلك الجرس الثّمين البرّاق ، وقد تدلّى منه حَبْلٌ طويل لامَسَ طَرَفُه الأرضَ ؟ وفي غَمْرة التّساؤلِ والدّهشة كان النّاظرون يتهامَسُون قائلين :

ـ لقد راقَبْنا بناء هذا النُّصب منذ بدايته ، ونحنُ لا نعرف سببَ تشييده . واليومَ ، وقد عُلّق الجرس إلى قُبّته ، ما نَزال نَجْهَلُ حقيقةَ الأمر . ترى ، هل يأتي الآنَ من يَكشِفُ لنا عن سرّه ؟ وهل يُقْرَعُ الجرس فنسمعُ رنينَه ؟

قال أحدُهم :

ـ لا ريبَ أنّه جرسُ الأعياد والاحتفالات ، لا يُقرع إلاّ في المناسَبات ...

وما زال المتفرّجون بين تساؤلٍ وتأويلٍ حتى سمِعوا وَقْعَ حوافرَ، ولغطَ فُرْسان. وامتلأ الجوُّ غُباراً، ثم انْجَلى، فإذا بالملكِ يَلِجُ السّاحةَ في جماعةٍ من أتباعه.

شَخَصَ الجميعُ إلى المَوْكِب، وفي نَظَراتهم شوقٌ إلى الاستِطْلاع. توَقّفَ الملكُ في وَسَطِ السّاحة، فَحيّا شعبَه الذي كان يَهتِفُ له، ثم قال:

ـ يا أبناءَ المدينةِ الكِرامَ! أظنُّكم تتساءلون عن سِببِ وجودِ الجرس في هذا المكان. لن أكْتُمَ عليكم سرّه، لأنّ الجَرَسَ هو جَرَسُكم. إنّه جرسُ العدالةِ، لن يُقْرَعَ إلاّ وَقْتَ الحاجةِ. فإذا ظُلِمَ أَحدُكم، أو لَحِقَ به أذىً، فَلْيُمْسِكْ بحبلِ هذا الجرسِ ولْيَقْرَعْه. وسيَهْرَعُ القضاة في أيّةِ ساعةٍ من ساعات

النهار لنَجْدَةِ المَظلوم ...

هلّل المحتشدون لعبارة الملك، ثم تفرّقوا وهم يُثْنُون عليه لتفكيره الدائم بسعادَة رَعاياه. وبات النّاسُ، داخِلَ المملكةِ وخارجَها، يَذكرون صنيعه بالإطراء والإعجاب.

*

مرّت الأيّامُ وسكّانُ المدينة ناعمو البال، يلجأون إلى الجرس يقرعونه متى أرادوا نَقْلَ شَكاواهم. ومع الوقتِ جارَتْ تقلُّباتُ الطقْس على حبل الجرس، فانقرضَ جُزْؤه الأسفلُ وسَقَط. وعَلِم القضاة بالأمر، فقصَدُوا إلى السّاحة لإبدال الحبلِ البالي بآخرَ جديد. وبعد جهود ومحاولات عدّة تبيّن لهم ان ذلك الأمرَ كان عسيراً! فقد تعذّر عليهم وجود حبل جديد يشابه الحبل القديم، في المدينة كلّها: فهذا حبلٌ جاء به أحدُهم ولكنّه لم يَفِ بالغَرَضِ لأنّه قصير!

وذاك حبلٌ آخر غير مناسب لأنّه رقيق! فما العملُ إذاً؟ جلس القضاة في رُكْنٍ من السّاحة يتشاورون. وصادَفَ أن مرّ بهم مُزارعٌ من المدينة عُرِفَ بفِطْنَته وخِفّةِ روحه، فتوقّف أمامَهم يُحاول الترفيه عنهم بعد ما لاحظ عبوسهم وارتباكهم. وقصّ عليه أحدُ القضاة قصّةَ الحبل، فأطرق المزارعُ بُرهةً، ثم ضربَ يداً بيدٍ، وقال وهو يَهُزُّ رأسه ضاحكاً:

— وهل هذه مُشكلتُكم؟ إبْقَوا هنا برهةً، إنّ ضالّتكم عندي، وسأعود إليكم بعد قليل.

إنصرفَ المزارع إلى بُستانه القريب فطافَ بين كُرومه، حتى اهتدى إلى عَريشة مسِنّةٍ متفرّعة الغُصون. أخذ المزارع مِنْجَلَه وقَطَعَ من العريشة أطولَ قُضبانها وأطرأهـا، ثمّ جرّه وراءه إلى السّاحة. وشاهده القضاة عائداً بعِرق العريشِ

المتين، فأدركوا غايتَه، وانفرجت أساريرُهم، فقالوا:

— واللهِ إنّها لفكرة حسنة! فلنحاول تطبيقها الآن!

تسلّقَ المزارع النُّصب برشاقةٍ إلى القبّة. وعَكَفَ على قَضيبِ العريش يُعالجه، حتى تمكّن من تَثبيت طَرفِهِ في عُنُقِ الجرس. عندئذ أرخى القضيبَ، فهوى طرفُه إلى السّاحة يُلامس أرضَها. ونَزَلَ المزارع مسروراً، فهنّأه القضاةُ على حُسن حيلته، وانصرفوا شاكرين...

*

في ذلك العهدِ كان أحد سكّان المدينة يعيش بمَعْزِلٍ عن الناس، في كوخٍ وَضيعٍ، على إحدى

التِّلال المجاورة . كان رجلاً هرماً ، عاش في شبابه عمراً من الفروسيّة والمغامرات . وكان للرجل جوادٌ عربيٌّ أصيل ، رافَقه في أسفاره ، واقتحمَ به المَخاطرَ بشجاعةٍ وإخلاص . وعلى مَرِّ السِّنين طعَنَ الفارسُ في السِّنِّ وتملّكه خوفٌ من الموت ، فأصبح التفكير بمصيره همَّه الأوّل والأخير . لذلك باع مُمتَلَكاتِه في المدينة ، وانصرف للعيش في الكوخ على التَّلّة .

ومنذ ذلك الحين أصبح الفارسُ العجوز أنانيّاً شرِسَ الطِّباعِ ، لا يَزور أحداً ! ثمّ إنّ تعلُّقَه بالحياة جعله بخيلاً لا يَكُفُّ عن عَدِّ أمواله وتَكديسِها ، حتى ضُرِبَتْ ببُخلِه الأمثالُ ! وأهمل الرجلُ أمْرَ جواده ، رفيقِ صِباه . فراح ذلك الجوادُ النَّبيل يَدور في جوار الكوخ ، طريداً ، هائماً ، لا يعرف الاستقرار . وصار يَقتات مِمّا يَجِدُه في تلك التلّةِ القاحِلة من

عُشْبٍ قليل ، حتى كاد يموت جوعاً . وجاء الشتاء قاسياً ، واشتدَّت وَطأةُ البرد على الجواد المسكين ، فخارت قواه . وكان صاحبه البخيلُ ، كلَّما فكَّر به ، يخاطب نفسَه فيقول :

ـــ يا لهُ من جوادٍ عاجز كَسول ! آه ! كم أَودُّ أن أَهَبه بلا ثَمنٍ ، فيوفِّرَ عليَّ العَلَفَ والعِنايةَ ! ولكنْ ، مَن يرضى به وهو لا خيرَ فيه ؟ ليتَه يموت فيَزول عِبؤُه عن كتِفي !..

إشتدَّ ضعفُ الجواد المسكين ، وأصابه المرضُ ، وأصبح يجرُّ حوافِرَه جرّاً ليبحث عن العشب والماء . وكان الصِّبْيَةُ يَرْشُقونَه بالحجارة . وكلابُ المدينة تَنْبَحُ في وجهه ، فيبتعدُ الجواد المظلوم خائفاً ذليلاً !

وذاتَ يوم من أيّام الحرِّ سار الجواد هائماً على وجهه ، فبلغَ المدينةَ ظُهراً . وصلَ إلى السّاحة وهي

مُقفِرةٌ ، بعدَما هجرَها الناسُ هرَباً من الشّمس المُحرقة . ورأى الجواد قضيبَ العريشِ متدلّياً من الجرس ، قد نَمتْ أوراقُه نَديَّةً شهيّة ؛ فسال لعابه ، وتقدّم منه متلهّفاً ، وراح يَقضِمُ الأوراق الخضراء بنَهَمٍ ويملأُ بها جوفَه. ولشدَّةِ انهماكِ الجواد بالأكل لم يتنبَّهْ للجرس الذي راح يقرعُ باستمرار . وسمع الأهلونَ والقضاةُ رنينَ الجرس، فتعجّبوا

الجواد يقضم الغصن

ممَّن يَشكو أمرَه في مثل تلك السّاعة . وهبَّ الجميعُ إلى السّاحة بدافع الدهشة والفضول . وزادت دهشةُ الناس حينَ وصلوا إلى السّاحة وشاهدوا الجوادَ يَنهشُ العُروقَ الطّريّة من غير اكتراث ...

ضحِكَ الكثيرون من غَرابةِ المَشْهَدِ ، ولكنَّ أحدَ المتجمهرين تقدّم وقال :

— ليس في الأمر ما يُضحِك . هذا جوادُ العجوزِ البخيلِ جاء يطلُبُ نصيبه من العَدْل ، على طريقته الخاصّة . وكلُّنا يعرف ما يذوقه هذا الحيوان المسكين من ظلم سيّده وقسوته .

خيّمَ الصّمتُ على الناس برهةً ، ثمّ قال كبيرُ القضاة متنهّداً :

— لقد دعانا الجواد بصورة عفويّة لننظُرَ في

أمره . ولذلك سنَحْكُم في قضيّته بإنصاف ، كما لو كان واحداً منّا !

أمر المجلسُ بإحضار البخيل ، فاقْتيدَ الرجلُ إلى السّاحة مُكْرَهاً . وقف أمام القضاة مرتعِدَ الأَوصال ، ينظر إلى النّاس الذين تحلّقوا حوله كأنّه يطلب النجدة .

ووقف كبير القضاة ووجّه كلامه إلى البخيل ، فقال :

— إنّ المُواطِنين المجتمعين الآن هَهُنا يتّهمونك بالقَسوة وبإساءة المعاملة . وأنت تعرف جَزاءَ هذه الأعمالِ في مدينتنا . فما هو دفاعك حِيالَ هذه التُّهمة ؟

أجاب البخيل منتحباً :

— أيّةُ إساءة وأيّة قسوة ، يا سيّدي ؟ أنا رجل فقير مسكين ، لم أُسِيء إلى أحد قَط !

— أنت تعلم ما أعنيه حقّ العِلم . فكُفَّ إذاً عن الرِّياء والانتحاب . جِيئوا بالحصان إلى هذا المكان !

وفي انتظار الجواد اختلى القضاة بعضَ الوقت للتّداوُل والتّشاور .

أُحضر الجوادُ إلى مكان التجمُّع ، فبدا أكثرَ نشاطاً بعد تناول وجبته الشهيّة من أوراق العَريش ! نظر كبيرُ القضاة إلى البخيل ، ثم إلى الجواد ، وقال :

— يا رجلُ ، ألا تعرف هذا الحصان المسكين ؟ إنّه حصانُك الذي كان لك خيرَ مُعينٍ ورفيق طَوال السِّنين. والكلُّ يعلَم أنّه أنقذ حياتك في مناسبات عديدة. كان شريكاً لك حين طُفتَ به الأرضَ لتجمع الثروة التي تكدّست في أكياسك. وسيبقى شريكاً لك الآن. ولذلك فإنّنا نحكُم بنِصف أموالك للشريك المخلِص الذي أنكَرْتَهُ وأهملتَ أمرَه. وسنَبني له بحصّته من المال حَظيرةً مُريحة وسطَ مَرْجٍ يكثُرُ فيه الماءُ والعشب . وبهذا

يَنعَمُ جوادُكَ المظلوم بالدِّفء والقُوت بقيَّةَ أيّامِ حياته !

أخذ البخيل يُوَلْوِلُ ويبكي شاكياً للناس فداحة الخسارة. وراح يسترحِم القضاةَ ، ثمّ شتم وهدَّد وتوَعَّد، من غيرِ أن يكترِث له أحدٌ . فقد وجد الجميع أنّ الحكم كان عادلاً ، فحاز استحسانَهم ورِضاهم .

*

الجواد في حظيرته

لم يَمضِ وقتٌ طويل حتى كان الحكم قد نُفِّذ . واختار أهل القرية بُقعةَ أرضٍ خصبةً لتكون مَسكناً ومَرْتَعاً للجواد الهَرِم . ثم بُنيت في وسطها حظيرةٌ واسعة مريحة . واقتيد الجوادُ المظلوم إلى مسكنه الجديد يواكبه القرويّون وكأنّهم في عيد . وقضى الجواد في أرضه حياةً راغدة آمنة .



القائد وصَقْرُه

منذ أقدمِ العصورِ كان الصَّيدُ معروفاً لدى شعوب الأرض قاطِبةً . ففي فجر البَشرِيَّة ابتكَرَ الإنسانُ معدَّاتٍ وآلاتٍ حَجَرِيَّةً اصطادَ بها الحيواناتِ التي كان يَقْتاتُ

بلحومها ، ويتّخذُ له ثياباً من جلودها . ثمّ تطوّرتِ الوسائلُ وتجدّدت شيئاً بعد شيء، وشهدَ العالمُ اكتشافاتٍ جديدة عديدة . ولم تَشُذَّ معدّاتُ الصيد وأسلحتُه عن هذه القاعدة. فمنذ أن اخترعَ الإنسان الأوّلُ أسلحتَه البدائيّة ، إلى عصرنا هذا ، عصرِ الأسلحة الناريّة الفتّاكة ، قطعت صناعةُ الأسلحة في مَيدان الفنّ والابتكارِ أشواطاً كبيرة . ولم يَبْقَ من أثرِ الأسلحة القديمة غيرُ نماذجَ تُعرَضُ في المتاحف والمجموعات الأثريّة .

وفي الصّيد استعان الإنسان ببعض الحيوانات النّبيهة. كان يُدرِّبها فتصبحُ أداةً طيّعة في يده ، تقتفي أثر الطّرائد ، وتشاركه في اقتناصها . وهكذا وجد الصيّادُ في الكلبِ رفيقَ صيدٍ مِثاليّاً ، واكتشف في الصّقْر ، ذلك الطّائرِ القويّ ، مواهبَ طبيعيّةً جمّةً ،

وبراعةً في الصيد فائقةً . وقصّتنا هذه قصّةُ صقرٍ صيّاد ، تُمثّل لنا ذكاءَ هذا الطّائرِ الجارح ، وطاعته ، وإخلاصَه .

*

يُحكى أنّ قائداً كبيراً اشتهرَ بفتوحاته وببسالته في المعارك والحروب. فأطلق الناس عليه اسم « القاهر » . وكانوا يتحدّثون عنه بإعجاب ، ويُحدّثون عن أعماله الحربيّة الخارقة .

في صباحٍ نيّرٍ من أيّام الصيفِ الحارّ قَصدَ « القاهر » الغاباتِ للصيد ، في جماعةٍ من أصحابه ، يَتبعُهم الخدَمُ والكلاب ؛ وكان الجميع يمنّون النّفسَ بالمتعة والاستراحةِ من عَناء القتال . كان الصيّادون يَحملون الأقواسَ والنّبال . واصطحبَ

« القاهر » في تلك الرِّحلةِ صقرَه المفضَّلَ ، واسمُه « الجرّاح » . فاستقرَّ « الجرّاح » على يدِ القائدِ اليُمنى ، المحْميَّةِ بقُفّازٍ من الجلد المتين ، متشبِّثاً بها بمخالبه القويّة .

أمضى « القاهر » ورفقاؤه نهاراً كاملاً في الغابات ، وأصابوا من القنص نصيباً وافراً . وقد أبدع « الجرّاح » في مُلاحقة الطّرائد ، فكان يَنقضُّ عليها ويُرهقُها حتى تسقُطَ واهيةً مستَسْلِمة . وفي المساء سار المَوْكِبُ في طريق العودة ، و « القاهرُ » مسرورٌ بما حظِيَ به من توفيق ، فخورٌ ببراعة صقره . وكان التَّعب قد حلّ في الرجال والمَطايا ، وشعَرَ الجميعُ بوَطْأة العَطَش ، فجَدُّوا في طريق العودة صامِتين .

وأراد « القاهر » أن يَجول في تلك البِقاعِ جَولةً أخيرةً ، فانفصل عن رجاله وسارَ مع صقره في

طريقٍ وَعْرٍ يَنحدِر إلى وادٍ بين جَبَلَين . كان القائد يعرف مَعابِرَ المِنطقةِ ومَسالِكَها واحداً واحداً . فتذَكَّر وهو يَعْبُرُ أحدَ هذه المسالك أنّ ساقيةَ ماءٍ عَذْبٍ تَنساب هناك ، على بعدٍ يَسير ، بين الصُّخور . وكان « القاهر » قد أرْوَى منها ظمأه غيرَ مرّةٍ ، في رحلاتِ صَيده العديدة . فهَمَزَ جوادَه وتوجّه نحو المَنهَل العذب ، فبلغه بعد وقت قصير .

ترَجّلَ « القاهر » عن مطيّته وتقدَّم نحو الصخور . وطار « الجرّاحُ » ، ثمّ راح يُحلِّق في ذَهابٍ وإيابٍ قربَ المكان . ولم يَأبهِ القائدُ لأمره ، لعلمه أنّ الصقر سيعود إليه بعد بُرهة من التحليق . ثمّ ألقى « القاهر » نظرةً على المكان الذي كان قد شاهد الساقيةَ تَنسابُ منه ، فخاب ظنُّه : فالماءُ الذي كان في الماضي يتدفّق

بغَزارة بين شُقوق الصّخور قد شَحّ اليَوم ، وغَدا قَطَرات هَزيلةً .

لم تضعف الخيبة عزيمةَ القائد الظّمآن ، بل تناول من جَعْبته كأساً فِضّيّةً ، ومدّها نحو الماء يجمعه فيها قطرةً قطرة. وامتلأت الكأس بعد انتظار طويل ، فرفعها « القاهر » إلى شفتيه ، وهَمّ بأن يرتشف الماء بلذّة .

في تلك اللحظة بالذّات سمع القائدُ طنيناً فوق رأسه ، وأصابتْ يدَه ضربةٌ مفاجئة ، فسقطت الكأسُ من يده قبلَ أن يجرعها !

إلتفت « القاهر » مُغتاظاً ، فوجد أنّ صقره هو الذي أسقط الكأس من يده . وطار « الجرّاح » يُحوّمُ مضطرباً فوق رأسِ سيّده ، ثم حطّ على مَقْرُبَةٍ من الساقية ، فوق الصّخور .

تعجّبَ « القاهر » من صَنيع الطائر ، وعادَ يُحاول ملء الكأس متذرّعاً بالصبر . كانت الكأس قد امتلأ نِصفُها ، وأوشكَ « القاهر » أن يجرعها ، ولكنّ الصقر انقضّ من مكانه فضرب بجناحيه يدَ سيّده ، فسقطت الكأسُ مرّةً ثانية .

إشتدّ غيظُ « القاهر » وصاح « بالجرّاح » :

— ويحك أيّها الصقر الوَقِح ! كيف تجرُؤ على عمل كهذا ؟ واللهِ لأَقْتُلَنَّكَ إذا أمْسَكتُ بك !

وقبل أن يملأ « القاهر » كأسَه للمرّة الثالثة استلّ سيفَه ، ثم نظر إلى الصقر وقال :

— أنت ترى أنّني جادٌّ في ما أقول ! فدَعْني وشأني أُروي عطشي ، وإلاّ فالوَيْلُ لك !

لم يَكَدِ القائدُ يُنهي كلامَه حتى انقضّ «الجرّاح»

ودفع الكأس من يد سيّده ، للمرّة الثالثة ! وكان القائد الحانِق يتوقَّعُ ذلك ، فعاجل صَقرَه بضربةٍ من سيفه . وأصاب النَّصْلُ القاطِعُ صدرَ الصقر ، فسقطَ الطائرُ المسكين مضرَّجاً بدمه .

نظر « القاهر » إلى صقره الصّريع ، وقال ساخراً :

ــ هذا جزاءُ الغَدْرِ يا طائرَ النَّحس !



القائد يضرب صقره بسيفه

ثم انحنى القائد لالتقاط كأسه فلم يجدها . فقد ضاعت الكأس بين شقوق الصخور بعد سقوطها . ولم يَيْأس الرجلُ ، بل قال مخاطباً نفسه :

ــ لن أنصرف من هذا المكان قبل أن أشرب ، ولو جُرعةً واحدة ، من هذا الماء !

وبدأ يتسلّقُ الصخور للوصول إلى مَنْبَع الساقية . كانت الصخور عاليةً مَلْساء ،



القائد ينظر الى الحية

تَزِلُّ فوقَها الأقدامُ . ووصل « القاهر » إلى قِمَّتها بعدَ عناءٍ كثير . وجد منبع الساقية ، وكان بِركة يسيل منها الماءُ بين الصخور إلى الوادي . وتَسَمَّرَ « القاهرُ » في مكانه ! فقد شاهدَ في البركة شيئاً رهيباً : حيَّـــةً كبيرة رقطاء قد التفّت على بعضها وسط الماء البارد ، وهي أكثر الحيّات فتكاً وسمّاً !

وللحال تذكَّر « القاهرُ » صقرَه الأمين ! لقد عرَفَ الحقيقة الآن ! فالصقرُ الذي طارَ وغابَ عن ناظرِه بعـــد وصوله إلى الساقية ، قد شاهَدَ الحيَّةَ في الماء ، ولذلك كان يُسقط الكأسَ من يد سيِّده مرّةً بعد مرّة ، ليُنقِذَه من المـــوت بسمِّها ! صاحَ « القاهرُ » يائساً حزيناً :

ـــ أنقذَني « الجرّاحُ » من موتٍ أكيد ، فبماذا كافَأْتُه ؟ لقد قتلتُه !

*

أسرع القائدُ بالعودة إلى الوادي حيثُ تَرَكَ الصقرَ بعد ضربه . وألقى إلى « الجرّاح » نظرةَ وَداعٍ أخيرةً ، وأكثرُ ظنِّه أنّ طائره العزيزَ قد مات . وكم كان سرورُه عظيماً حين رأى « الجرّاحَ » يَنتفِضُ انتفاضةً ضعيفة ، وفيه بَقيَّةُ روحٍ ! هرع القائدُ فجَثا أمـــامَ رفيقه ، ثم رفَعَه برِفْقٍ فوقَ صَهْوةِ جواده . ركِبَ مطيَّتَه وراحَ يُسابق بها الرِّيحَ ، حتى وَصـــل إلى منزِله .

ضمَّدَ « القاهر » جُرحَ صقره ، وبقي مدّةً من الزّمن يُعالجُه ويُعْنَى به خيرَ عِنايةٍ ، حتى التـــأم الجرحُ وطاب .

ويومَ تماثَلَ « الجرّاحُ » للشّفاء ، حَمَله « القاهر » وراح يَنظُر إليه بعينٍ مِلْؤُها المودّةُ والامتِنان . ثم قال يُخاطِبُه :

ـ لقد ضربتُك بسيفي يا «جرّاح» ، حين أعمى الغَضَبُ قلبي . وأمّا الآن ، وبعد ما انتهى الأمر على ما يُرام ، فقد حفظتُ منك درساً لن أنساه : يَنبغي على الإنسان ألاّ يأتيَ عملاً وهو تحت وَطْأة الغضبِ الذي يُفقدُ المرْءَ صوابَه !



شهامةُ الأسد

في القديم الغابر عاش في « روما » شابٌّ اسمُه « أندروكلس » . كان عبداً لسيِّدٍ قاسي القلب ، عَديم الرَّحمة . وكان « أندروكلس »، في عبوديّته، كأيِّ

عبدٍ آخرَ ، جسداً بلا روحٍ ، مسيَّراً بمشيئة السيِّد : يُؤمَرُ فيُطيعُ ، ويُنهَر فيَخضع . إلّا أنّه كان حرّاً في قلبه وروحه ، يتحلّى بدَماثةِ الخُلُقِ وكَرمِ الخصال . وكان ، والحالُ هذه ، يَتُوقُ ، في قَرارة نفسه ، إلى التحرُّر أبداً .

عبدٌ ؟ سيِّدٌ ؟ ما معنى هاتين الكلمتين ؟

لم يكن العالَمُ قديماً كعالمِنا اليومَ . في تلك الأزمنة كان العبدُ مُلكاً لسيِّده ، يُباع كالسِّلعة ويُشترى . وكان السيِّدُ يَملِكُ على عبيده كما يملك على مَواشيه ، فلا فارقَ عنده بين عبدٍ وحيوانٍ إلّا بالمَظْهَر واللِّسان . وكان السيِّدُ يتصرَّفُ بعبيده بمشيئته المُطْلَقة : فإذا أرادَ الموتَ لعبدٍ قُتِل العبدُ ، وإذا أراد له الحياةَ أبقاه حيّاً ، وإذا أرادَ له الحرّيّةَ أعتَقَه .

صَبَرَ « أندروكلس » على حياته الشقيّة مُدّةً

طويلة ، إلى أن عِيلَ صَبْرُه ، وعافَ حياةَ الذُّلّ والهوان . وفي ليلةٍ لَيْلاءَ فرَّ « أندروكلس » من حَظيرته الحَقيرةِ في أرض سيِّدِه ، وقَصَدَ نَحْوَ الغاب . وما زال مُتسلِّلاً تحت جِنْحِ الليل حتى جاوزَ آخرَ بُيوتِ المدينة ، وهناكَ أطلق « أندروكلس » ساقَيْه للرِّيح ، واستمرّ في عَدْوِه حتى وَصَلَ إلى غابةٍ كَثيفة . وكان القَفْرُ يُحيطُ بالغابة من كلّ صَوبٍ ، لا حياةَ فيه ولا حَرَكة .

في ذلك المكان تنفَّسَ « أندروكلس » الصُّعَداء ، بعدما ابتعد عن المدينة والناس . ثم وَجدَ له مأوى بين قُضبانِ القَصَب والأعشابِ الطويلة ، فاستلقى على الأرض ونام .

في الصباح أَفاقَ « أندروكلس » وراحَ يَدورُ في الغابة مستَكْشِفاً . لم يكنْ هنالك ما يَقْتاتُ به ، فخرج

من الغابة وجالَ في أرجاء المِنْطَقة شِبراً شِبراً ، باحثاً عن غِذائه . ولم يجد « أندروكلس » شيئاً يأكُلُه ، فبَقي في تلك البِقاعِ أيّاماً يقتات من الأعشاب . وخُيِّلَ للعَبد المِسكين أنّه لا محالةَ هالِكٌ . وذاتَ صَباحٍ انتهى به المَطافُ إلى كَهْفٍ ظَليلٍ ، فانْطَرَحَ على أرضه وهو في شِبه غَيْبُوبة . ونام تلكَ الليلةَ نوماً مُضطَرِباً مَحْمُوماً .

بقيَ الشابُّ المسكين على تلك الحالِ طَوال الليل . وزاد من عذابه ، وهو في غيبوبته ، أنّهَ شاهدَ كَوابيسَ مُرَوِّعة : رأى نفسَه وهو يموت جوعاً ، تَنْهَشُ لَحْمَه الغِرْبانُ ؛ ثم خُيِّلَ له أنّــه يَهْوِي من مكانٍ مرتفع ، فتتحطَّمُ عِظامُه فوقَ الصخور . وكان المسكين يرى نفسَه ، بين كابوسٍ وآخرَ ، مُكبَّلاً بالسَّلاسل ، تُلهِبُ السِّياطُ جَسَدَهُ ، يَذوقُ من العذابِ

أمَرَّه . وبَقيتِ الكوابيسُ جاثِمةً فوق صدر « أندروكلس » تُرهِقُ عقلَه وقلبَه . ثم استيقظ الشابُّ مرتاعاً على صوتٍ غريب تكسَّر صَداه على جوانب الكهف. ونظر مستطلعاً ، فإذا بأسدٍ مُخيفٍ يَنظرُ إليه زائراً . وفَركَ « أندروكلس » عينَيه ، ظانّاً أنّ ما شاهدَه لم يكن غيرَ حُلمٍ آخرَ من أحلامه الرهيبة . ولكنَّ الزَّئير عادَ يملأ أُذُنَيه ، فعَلِمَ المسكينُ عندئذ أنّه قد لجأ إلى عَرين الأَسد ، وأدركَ أنّ أَجلَه قد دنا ! وخُيِّلَ إليه أنّ الوَحْشَ جائعٌ ، وأنّه سينْقَضُّ عليه ليفتِكَ به . فبقي في مكانه مستعِدّاً لمُلاقاة حَتْفِه . ولكنْ ، سُرْعانَ ما تبيَّنَ لـ « أندروكلس » أنّ الأسد لم يكن غاضبــاً ! كان مَلِكُ الحيواناتِ يَعْرُجُ وقد رفع إحْدى قوائمه . وشعرَ « أندروكلس » بجرأة مُفاجئة ، فتقدَّمَ من الأَسد بجسارةٍ ، وأخــذ قائمته بيدَيه وبدأ يتفحَّصُها . وخضعَ الأَسد للفَحْص

هادئاً ، ثم أخذ يفرك رأسه بكتِف « أندروكلس » وكأنّه يريد أن يقول :

— أجلْ ، هنا مَصْدرُ الألم ، أنا واثقٌ من أنّك ستُساعدني !..

كانت قائمةُ الأسد مجروحـة ، فرفعها « أندروكلس » ، ونظر إليها عن كَثَب ، فإذا بشوكةٍ طويلةٍ حادّة قد استقرّتْ في راحتِها. أمسكَ الشابُّ طَرَفَ الشّوكةِ بإصبعه ثمّ انتزعها بحركة سريعة ، فهزَّ الأسدُ رأسه وقد خفّ ألمُه ، ثم أكَبَّ على يدَي « أندروكلس » وقدميه يلْعَقُها ، كما يفعلُ كلبٌ أليف . وللحال اطمأنّ « أندروكلس » وزال خوفه . وأقبلَ الليل فتمدّد الصديقان الجديدان على الأرض وناما جَنْباً إلى جنب .

*

توطّدت الصداقةُ بين الرجل والوحش. ولأوّل

مرّة عرَفَ « أندروكلس » معنى العاطفة والولاء . فقد أصبح الأسدُ طوْعَ أَمْره ورَهْنَ إشارتِه. كانا يُغادران الكهف للصّيد أو النزهةِ ، فيَسيران متلاصِقَين ، فيلْهُوانِ ويمرحان ، أو يَسعَيان معـاً وراءَ القُوت . ولأوّل مرّة استطاع « اندروكلس » أن يرى ملكَ الوحوش وهو يصطاد بغريزته المثيرة : كان الأسد يَسيرُ مُختالاً ، عاليَ الجبين ، حتى إذا ما أبصرَ طريدةً ، أو شمّ رائحتَها ، تربّص بها ، ثم انقضّ عليها وأزهقَ روحها بمخالبه القويّة . وكانت تُخامرُ « أندروكلس » آنذاكَ مَشاعرُ مختلفةٌ كثيرة : كان يَشعُر بالحزن كلّما شاهد الأسد يصرع الحيوانات الضعيفة العاجزة بلا شَفَقة ، أو يتملّكهُ الاشمئزازُ حين يرى أشلاءَ الطّريدة تنزِف دماً . إلاّ أنّه كان يَكُنُّ لرفيقه القويّ كلَّ احترامٍ وإعجاب ؛ فهو سيّدُ الحيواناتِ ومليكُها الجبّار ، وهو ، إذا قتلَ ، فلكي يؤمّنَ حاجتَه من الطعام ، وليس رغبةً منه في القَتْل

والإرهاب كما يفعل بعضُ الأشرار من البَشَر. وفي أيّ حالٍ كان « أندروكلس » سعيداً لكونه صديقَ الأَسد لا عدوّه !

ولكنّ عَهْدَ « أندروكلس » بالحريّة لم يَدُمْ طويلاً ! فأنّى للعَبد المسكين أن تَدوم سعادتُه، وهو في حريّته المؤقّتة كالسّابح في حُلُمٍ جميل !؟ كان بعضُ الجنودِ عائدين إلى المدينة ذاتَ يومٍ، ففاجأوا «أندروكلس»



الجنود يعودون بـ«أندروكلس» أسيراً

وهو يَغتسِل عند نَبْعٍ بعيدٍ عن الكهف. فارتابَ الجنودُ في أمره، وألقَوا القَبْضَ عليه، واقتادُوه إلى « روما » مكبَّلاً بالأَغلال. وهكذا عاد «أندروكلس» عبداً أسيراً في سجنِ المدينة.

*

لم يَقْتَصِر عِقابُ «أندروكلس» على الأَسر في الظُّلمة والعَذاب. فالعبدُ الذي يخرُجُ عن طاعة سيِّده كان يُقادُ إلى حَلْبَة المدينة ليُصارِع فيها أمام المتفرّجين أسداً جائعاً؛ فإمّا أن يَسقُطَ العبدُ أمام الوحش فيَموتَ، وإمّا أن يخرج من الصّراع منتصِراً فيُعتَقَ للحال.

كان «أندروكلس» عالِماً بما سيَحِلُّ به، فبات يترقّبُ الساعةَ الحاسِمةَ بطُولِ أناة. لم يكن يُمنّي النّفسَ بالنّجاة، إذ لم يَسبِق لأحدٍ من قبلُ أنْ نَجا

من بَراثِنِ أسدٍ جائع في مثلِ تلكَ المُقابَلات .

أعلن المُنادُون في ساحةِ المدينةِ عن المُصارعة بين العَبد السَّجين وواحدٍ من الأُسود الضارية . وفي اليوم المحدَّد تدفَّق الناس إلى مَيدانِ المصارعة ، فغصَّتْ مُدرَّجاتُ الحلبة بالمتفرِّجين . وشَخَصتِ الأَبصار ، وامتدَّتِ الأَعناقُ ، وجحَظَتِ العيونُ ، والنفوسُ متعطِّشةٌ لرؤية الدِّماء والموت . ثم اُقْتِيدَ « أندروكلس » إلى الحلبة وسْطَ الحماسةِ والهُتاف . وقف المسكين يستمع إلى زئير الأسد الهائج في قفصه ، ثمّ نظرَ إلى المحتشِدين نَظرةً أخيرة : كان يتمنّى أَن يرى الشَّفَقَةَ ترتَسِم على بعض الوُجوه ، فيهُونَ مُصابُه . ولكنْ ، يا لَخَيْبَتِه ! فالعيون تَنظرُ إليه وكأنّه حَشَرَةٌ مُؤذِية ! رأى « أندروكلس » القَسْوةَ والبُغضَ مرتسِمَين على الوجوه ، فتساءل ، والموتُ يُهَيْمِنُ فوقَ رأسِه :

ـــ لماذا ؟ تُرى ، هل جاء هؤلاء جميعاً ليَشهَدُوا الموتَ ، وهم على مَقاعدِهم يَهتِفُون ، بصدور عامِرة بالحرّية وبالحياة ؟

لقد كانت تلك الأَجسادُ المنتفضةُ ، الصارخةُ ، العابثةُ في وجه الموت ، أَبشعَ من الموت وأَقسى !

طأطأ « أندروكلس » رأسَه ، وحوَّلَ بصَرَه عن الناس . كيف يرتجي الرَّحْمَةَ من أسدٍ جائع ، وهو الذي قرأ في عيون بَنِي جِنسِه ما قرأه في تلك الساعةِ من وَحْشِيَّةٍ وقسوة ؟!

★

أَفْلتَ الأَسدُ فانطلقَ إلى الحلبة كالغضَب ! عيناه تقدَحان شرَراً ، تَبحثان عنِ الفريسة بعد ما جوَّعوه طويلاً . وتجمَّدتْ أوصالُ « أندروكلس » جَزَعاً ، ثم أطلق صَيْحَةً عظيمة ! لم تكن صيحة

ذُعرٍ ، بل صيحةَ فرحٍ وَفَرجٍ في آنٍ معاً ! لقد شاءت الأَقدارُ أن يكونَ الأسدُ الذي اختِير لافتراسه صديقاً وفيًّا ! إنّه الأسدُ الذي انتزعَ « أندروكلس » الشوكةَ من قائمته !

ولكنْ ، كيف شاءت الصُّدْفةُ أن يجتمعَ « أندروكلس » وصديقُه الأسد في الحلبة ؟ إليكَ القصَّةَ .

بعد وقوع « أندروكلس » في قَبْضة الجنود عاد الأسدُ إلى الكهف ، وتفقَّد صديقَه فلم يَجِدْه . وطالَ انتظارُ الأسد من غير جَدْوَى . عندئذٍ خرج يبحثُ عن صديقه ، وتوغّل في البحث ، حتى بلغ أبواب المدينة من غير أن يعثرَ عليه . وفيما كان الحيوانُ الأمينُ يَسلُكُ طريق العودةِ وَقَعَ في حُفرةٍ عميقةٍ مُغطّاة بورَق الشجر ، هي فخٌّ نَصَبَه بعضُ الأَهلينَ

لاصطياد الوحوش . وبذلك كان حظُّ الأَسدِ النبيل ، في ذلك اليوم بالذات ، كحظِّ صديقه العاثر ،وكان نصيبه من الأسر كنصيب « أندروكلس » بالذات . وبِيعَ الأسد ، ثم انتهى به المصيرُ إلى حلبة المدينة ليكونَ فيها أسداً مصارعاً ! وهكذا ، بلَفْتَةٍ من لَفَتات القَدَر ، التقى « أندروكلس » صديقَه في الظروف الغريبة التي ذكَرْناها .

*

أطلقَ « أندروكلس » صَيحةَ الفرح والفرج لدى مشاهدتِه صديقَه الأَسد . وأَصابَ الذُّهولُ جماهيرَ الناس الهائجة : فَبدلاً من أن يَرَوا الوحشَ الضّاري يَنقضُّ على العبد العاجز لافتراسه، ماذا رأوا ؟ هرع « أندروكلس » إلى صديقه يطوِّقُ رأسه الكبيرَ بذراعَيه ، ويداعبه ، ويقبِّله . وتحوّلَ زئيرُ الأَسدِ إلى هَمْهَمَة لطيفة ، وَشَرَع بدوره يفرك رأسه

برأس « أندروكلس » ويلعق يديه وقدميه . ولا تسَلْ عن الدهشة التي أصابت الحضورَ أمام ذلك المشهدِ العجيب ! هَمَدَتْ أنفاسُ المتفرّجين فترةً طويلة ، وحاروا في أمرهم وهم عاجزون عن تفسير المعجزة . ثم هبُّوا من أماكِنهم دفعةً واحدة يَضِجُّون ، سائلين « أندروكلس» عن حقيقة أمرِه . وتعالى صوتُ « أندروكلس » يَروي للناس قصَّتَه ، والحلبةُ سابحةٌ في صَمْتٍ عميق .

وأنهى « أندروكلس » روايته وهو يُشيرُ بإصبعه إلى الجالسين ويقول :

ـ أنا ، كأيّ رجلٍ منكم ، جسدٌ فيه عقلٌ وقلبٌ ولِسان . ولكنّني وُلِدتُ في العُبوديّة وعِشت فيها . لم يكنْ لي صديقٌ قبلَ اليوم . ثم كان لقائي بهذا الحيوانِ النبيل ، فشفَيتُه ، فأحبَّني ، وصادَقني ، وهو الوحشُ الكاسِر الذي لا يُصادق أحداً . إفعَلُوا بي ما

يَرُوقُكم ، لأنّني سأموت الآن قريرَ العين ، بعدما عرَفتْ نفسي المعذَّبةُ معنى السعادةِ والصَّداقة ...

وكأنِّي بخُطْبَة « أندروكلس » أعادتْ إلى العقولِ الطائشة صوابَها ، وإلى القلوب الصمّاء إحساسَها ، فأصغى الناسُ في المُدَرَّجات إلى قصّة « اندروكلس » باهتمامٍ كثير . ودوّتْ أصواتُ الجمع تهتِف قائلةً :

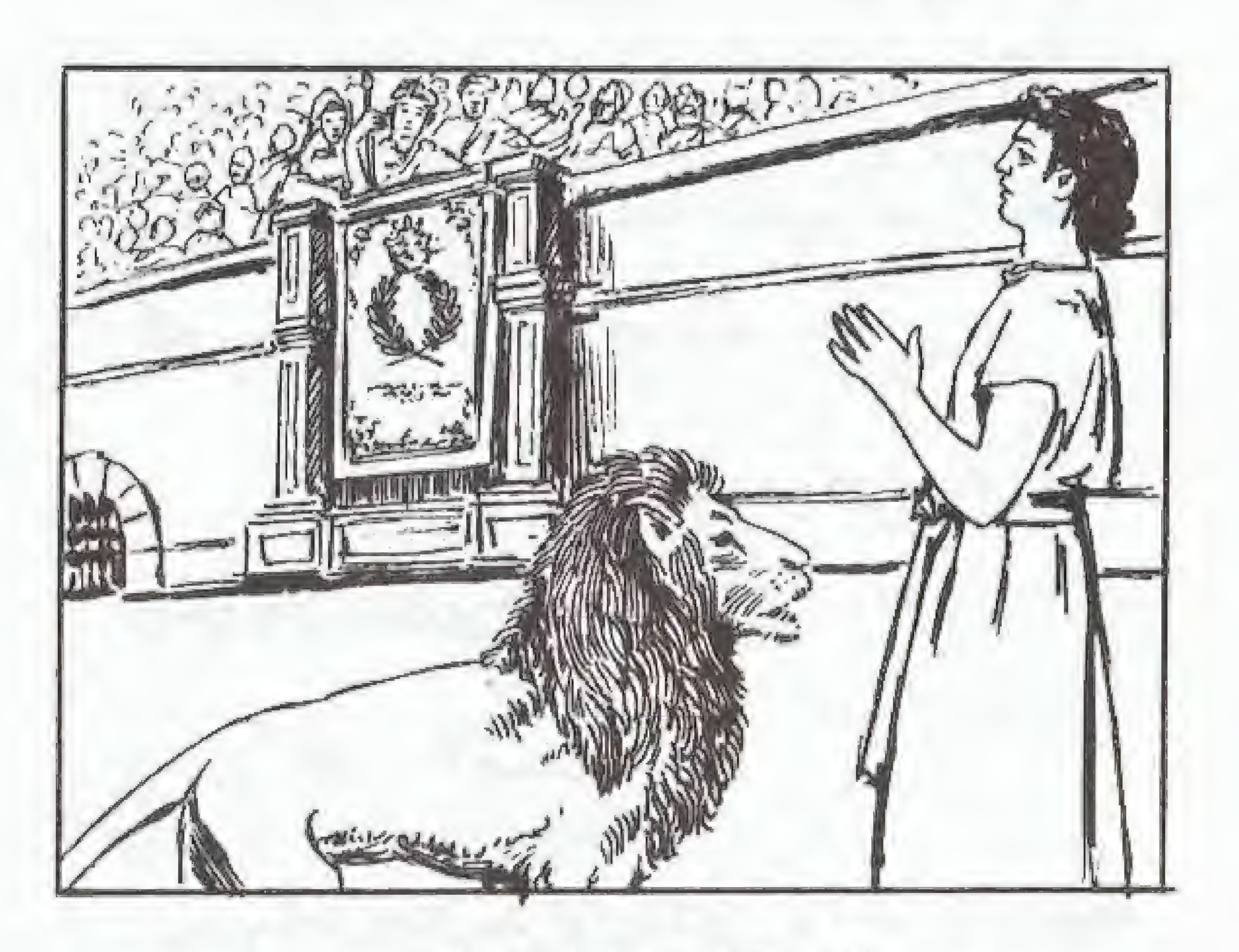
ـ الحياةُ والحرِّيَّةُ لـ « أندروكلس » ! الحياة والحرّيّة لـ « اندروكلس » !

ثمّ هتفت الأصوات تقول :

ـ الحرّيّةُ للأسد الأمين ! أترُكوا الأسد وصديقه يَذهبان بأمان !

وهكذا كان . فقد أُطلِقَ سَراحُ الصديقَين ،

فانصرف الرجلُ والأسدُ طليقين سعيدَين . ومنذ ذلك الوقتِ عاش « أندروكلس » مع صديقه الأوحدِ حياةً كريمة حرّة .



« أندروكلس » يخاطب الجماهير



رَامِز وَالمِرَّة

مات والدا « رامز » وهو ما زال طفلاً ، فعاش في قريته يتيماً ، لا نسيب له ولا قريب . ولم يجدْ أهلُ القرية بُدّاً من تَبَنِّيه ، فربّوه مع أولادهم . وكانوا جميعاً من

الفلاّحين الفقراء، وكانت قريتهم قليـــلةَ الموارد والغِلال. وهكذا تفتّحتْ عينا «رامز»، من خلال قريته، على الحرمان والفقر. ولكنّه، مـــع ذلك، لم يَشْكُ ولم يتذمّر. فقريتُه آيةُ حُسن وجمال: ينابيعُ تتفجّرُ من الأرض صافيةً عذبة؛ وسواقٍ تتلوّى رقراقة منعشة؛ وبقاعٌ مخضّبة ومروج خضراء ترعى فيها الماشية...

لم تكن حياة «رامز» لتختلف عن حياة أيّ إنسان آخر من سكّان قريته. فقد غادر المدرسةَ في سنّ مبكّرة، وعمل في الحقول مع أبناء القرويّين. وأحبّه الفلاّحون لجدّه ونشاطه، فعاملوه كواحدٍ منهم. وأنْستْه المعاملةُ الحسنة أنّه غريبٌ بين غُرَباء، فعاش على تلك الحالِ مقتنعاً راضياً.

في العشايا كان «رامز» يجلس مـــع الجالسين في

السّاحة، أو في أحـــد البيوت، يُصغي للأحاديث الممتعة. وكانت الأحاديث، في غالب الأحيان، تدور حول الحياة المُترَفة في المدن، وفي عاصمةِ البـــلاد بخاصّة. فالذين زاروا العاصمة من أهل القرية قلائلُ، وأمّا الذين سمعوا عنهـــا فكثيرون. والصورة التي انطبعت عنها في مخيّلة الجميع صورةٌ أسطوريّة لمدينة عجيبة...

في إحدى تلك العشايا سمع «رامز» شيخ القرية يتحدّثُ بدوره عن العاصمة. كان قد زار المدينةَ أربعَ مرّاتٍ أو خمساً، لذلك كان يعرف عنهـــا أكثرَ ممّا يعرفهُ أيُّ فردٍ آخر من سكّان القريـة. قال الشيخ تلكَ الليلةَ، وعيناه سارحتان في الأُفُق:

ـ لقد سمعتُم الكثيرَ عن العاصمة. إنّها مدينةُ العجائب، يتدفّقُ فيها المالُ كالأنهار. سكّانُها أثرياءُ

يَنعَمون جميعاً بالتَّرف والرَّخاء . مبانيها تُناطِح السَّحابَ ، وملاهيها تَسحر الألباب . قصورُها كقصور « ألف ليلة وليلة » ، فيها اللَّهْوُ والطَّرَب ، وفيها من المأكل والمَشرَب ما لَذَّ وطاب . ساحاتُها زاهية مُزهِرة ، تتصدَّرُها أحواضُ الماء . وفي كلّ ساحة ترى الناس قد انتَشَروا على مقاعدَ مَرمريَّةٍ ، لا شاغلَ لهم سوى الراحة . صَدِّقوني ، إنّ من يعيش في مكانٍ كذاك هو أسعدُ الناسِ وأوفرُهم حظّاً !

وكان بعضُ السّامعين يردِّدون أقوالَ شيخهم ، ويُضيفون عليها صوراً سحريَّةً من نَسج خيالهم . فكم مرةٍ سمعهم « رامز » يقولون إنَّ شوارع المدينة مرصوفةٌ بحجارة من ذهب ! وكم مرَّةٍ تخيَّلَ الناسَ فيها يلبَسون أبهى الثيابِ والحُليّ ، ويركبون عربات مفضَّضةً ، مرصَّعةً بالجواهر ! ولكنَّ بعضَ

مَن في القرية كانوا يَسخرُون من تلك الحكاياتِ ، ويَهزُّون الرأسَ قائلين :

ـ كلُّ هذا كذِبٌ ! ألناسُ يَكدَحون ويَشقَون في كلّ شبرٍ من الأرض . ولكنّ السعادة الحقيقيَّة تُدرَكُ إلاّ هنا ، في القرية ، في كَنَفِ الطبيعة وطِيبِ المُناخ ...

لم تكنِ الأحاديثُ المتضاربة إلاّ لتَزيدَ انجذابَ « رامز » ، روحاً وعقلاً ، إلى مدينة العجائب . باتَ يَحلُمُ بها باستمرار إلى أن عَقد العَزْمَ على السَّفَر . وعلِمَ أهلُ القرية بالأمر ، فحاولوا ردَّه عن عزمه ، ولكنّ القرويَّ الصغيرَ بقي ثابت العزيمة ، راسخ الاقتناع .

في ذلك العصر كانت عَرَباتُ الخيل هي الوسيلة الوحيدة للأسفار البعيدة . وكانت إحدى تلك العرباتِ

تَمرُّ في القرية ، في طريقها إلى المدينـة ، مرّةً كلَّ أسبوعين .

وفي صَبيحةٍ باكرةٍ مرّتْ عربةُ السَّفَر بالقرية كالمعتاد . وتوقَّف الحُوذيُّ بركّابه أمام مقهى القرية الصغير طلباً للرّاحة والطعام . كان « رامز » واقفاً مع بعض المتجَمْهِرين يَنظرُ إلى العربة بإعجاب . ثم خرج الركّاب من المقهى وعـادوا إلى مقاعـدهم داخـلَ المَرْكَبَة . وصعد الحوذيُّ إلى مقعده ، وأخذ السَّوطَ بيده مستعِدّاً للانطلاق .

تقدَّمَ « رامز » من الحوذيّ وقال له :

ـــ يا عمُّ ، أتأخذُني معك ؟

تعجَّبَ الحوذيُّ من طلب الصبيِّ وأجاب :

ـــ آخذُكَ معي ؟ إلى أين ؟

ـــ إلى حيثُ تَقصِدُ ، إلى العاصمة .

كانت عينا « رامز » تشعّان رغبةً وشوقاً . فنظر إليه الحوذيُّ باهتمام وقال :

ـــ ولكنَّ المدينةَ بعيدةٌ ، بعيدة ! وماذا تفعلُ في العاصمة يا بُنَيَّ ؟ هل لك أقاربُ فيها ؟

وأردف الرَّجـــلُ وكأنّه يريد أن يُحبِطَ عزم الصبيِّ من غير جدال :

ـــ ثم إنّ العربة ملأى بالركّاب . فلن أتمكّن من تلبية رغبتِك ، حتى ولو أردتُ ذلك .

أطلق الحوذيُّ سوطَه ، فتحرَّكتِ العربة بجِيادها الأربعةِ القويّة . ووقف « رامز » مذهولاً وهو يرى فرصته تتقلّص مع كلّ شبر تلتهمه عجلات العربة في دورانها السريّـــع . إلاّ أنّه لم يبقَ هكذا طويلاً

أسيرَ الخيبة والإخفاق . ولم تمضِ دقائق على ابتعاد العربة حتى كان « رامز » يعدو وراءها كالرّيح ! وعبثاً حاول القرويّون إيقافه . فقد بقي الصبيّ يتعقّبُ العربةَ حتى لحق بها وهي تجتاز منعطفاتِ القرية الخطرة ببُطءٍ . تسلّق « رامز » العربة من مؤخّرتها ، واختبأ في إحدى زواياها من غير أن يراه أحد !

*

كانت الرّحلة شاقّةً وطويلة . وكانت عجَلاتُ العربةِ تقطعُ المسافاتِ بعناء ، مِيلاً بعد ميل . ولكنّ « رامز » لم يشعرْ بالتعب لشدّة اندفاعه وحماسته . وبعد ساعات من السّفر الجادّ وصلت العربة إلى العاصمة ، فخرج الصبيُّ من مخبئه وهو في غمرة سعادته .

راح « رامز » يَجُوبُ الشّوارعَ لاكتشاف

عجائبِ تلك المدينةِ التي طالما حلم بها . ولأوّل وهلةٍ شعرَ بالخوف يَتملّكهُ ! ولأوّل مرّة أحسّ بالغربة والوحشة : فالغرباءُ الذين كانوا ينصبّون في الشوارع كالسّيل ، ويَسيرون من حوله بسرعة ، لا يلتفتون إليه . وفي السّاحات لم يكن الناسُ متمدّدين على مقاعد المرمَر كما كان يدّعي المتحدّثون في القرية . ونظر « رامز » الى أرض الشوارع يتفحّصُها بإمعان ، فإذا بها شوارع عاديّة فيها حجارة وتراب ، لم تكن مرصوفة بالذهب كما قيل في القرية .

بقي « رامز » ساعاتٍ طِوالاً يجول في الشّوارع بلا كَلَل . شاهد قلب المدينة يَنْبِضُ في النهار ، فخُيِّل له أنّها خَلِيَّةُ نَحْلٍ تَعجُّ بالنشاط والعمل . ولم يتأثّر بمنظر المباني الشاهقةِ والمتاجرِ الفخمة ، فلقد طغت خَيْبَتُه الأُولى على مشاعره كافّةً .

وَحلَّ الليل يلُفُّ « رامز » بوِشاحٍ أسودَ كثيفٍ . وأفاق الصبيُّ من نَشْوة السَّفر والاكتشاف، فوجد نفسَه وحيداً ، لا يَدري إلى أينَ يسير . فجلس على قارعةِ الطريق يبكي ، وقد تملكه خوفٌ شديد . وتعبت عيناه من البكاء ، فنام كالمتسوِّلين ، يفترِشُ الأَرضَ ويَلتحِفُ السَّماء ...

*

أفاقَ « رامز » في صَبيحة اليوم التالي ، فأحسَّ بجوعٍ شديد . ونَسي للحال أساطيرَ أهلِ القرية ، وما حاكُوه من القِصص حول عجائبِ المدينة . فهبَّ من مكانه وشاغِلُه الأوحدُ أن يَبحثَ عن طعام . وهامَ في الشَّوارع ، بحثاً عن وسيلة أو مساعدة ، إلى أن خارتْ قواه من التَّعب والجوع .

وفجأةً وجد نفسَه يَمُدُّ يدَه للناس ، يتسوَّل ، يطلُب قروشاً قليلة يشتري بها قوتاً . إلاّ أنَّ المارَّةَ كانوا يمرُّون به ولا يلتفتون إليه . وكان بعضهم يَنظرون إليه مستنكرين ، ويؤنِّبونه قائلين :

ـ يا لكَ من كَسولٍ ! لماذا لا تَبحث لك عن عملٍ بدلاً من أن تمدَّ يدكَ مستَجْدِياً ذليلاً ؟



« رامز » يستجدي

ولكنْ ، كيف يجدُ عملاً من كان في مِثل سِنّه ، في أرضٍ غريبة ؟

إشتدّت وَطأةُ الجوع على الصبيّ اليائس ، حتى بات يجُرُّ خُطاه جرّاً . وفي أحد أحيـــاء السَّكَنِ الجميلةِ الهادئة انطرح « رامز » على عَتَبةِ منزلٍ فخْم ، يمسح دموعه ، دموع الندم على الطيش الذي دفعه إلى مغادرة القرية. وأطلّتْ طاهيةُ المنزلِ من شُبّاك مطبخها ، فشكّتْ بأمره ، وخرجت لتطرُدَه . وفي تلك اللحظةِ كان رَبُّ البيت ، واسمُه «عبد الله » ، خارجاً من منزله، فوجد الصبيّ على تلك الحالِ ، وقال له :

ــ ماذا تفعلُ هنا يا بُنيّ ؟ ألا تخجَلُ من التَّسكُّع هكذا ؟ إنّك فتيٌّ وقويّ ، فلمــاذا لا تسعى وراء رزقك ، كبقيّـة الناس ؟

أجاب « رامز » متلهّفاً :

ــ لقد وصلت اليوم إلى المدينة ولستُ أعرف أحداً فيها . ثمّ ... أنا ... أنا جائع ، لم أذُقْ طعاماً منذ البارحة !

رثى « عبدُالله » لحال « رامز » ، فأدخله إلى المنزل ، وطلب من الطاهية أن تُطعمَه . ثم كلّفَ الصبيَّ القيامَ ببعض أعمال المنزل ، وعرَضَ عليه أن يبقى في البيت ليساعدَ الطاهيةَ في مطبخها . ورضِيَ « رامز » شاكراً ، فأقام في المنزل يَبذُلُ جُهْده في الخدمة صباحَ مساءَ . ولم يَرُقِ الأمرُ للطاهية التي كانت خبيثةً وحسودة ، فراحت تَنْهَرُ « رامز » وتضربه ...

وكان لـ « عبد الله » ابنةٌ لطيفة، في مثل سنّ « رامز »، اسمُها « نادية » . شعرتْ « نادية » بمـــا يُعانيه الصبيُّ المِسكينُ على يد الطاهية القاسية ، فأمرَتْها بأن تَكُفَّ عن الإساءة إليه . فخافتِ الخادمةُ أن تَشكُوَها الفتاةُ

إلى أبيها ، وتركت « رامز » وشأنه . إلاّ أنّ متاعب الصبيّ لم تنتهِ عند هذا الحدّ !

كان « رامز » يَنام في غرفةٍ صغيرة على سطحِ المنزل ، كانت مسرحاً للفئران والجُرذان . وكانت تلك الحيوانات المُزعِجةُ تتجوّل في مَضجَعه تحرِمه طعمَ النوم والرّاحة . وفي يومٍ من الأيّام ، بينما كان « رامز » يتمشّى في شارعٍ قريب من المنزل ، مرّ بفتاةٍ تحمِلُ هِرّة . وللحال تراءت له صورةُ الفئران والجرذان في غرفته . فتقدّمَ من الفتاة وقال لها :

ـــ ما حاجتُك بهرّة تافهةٍ كهذه ؟ هل تَبيعينها؟ أعطيكِ عَشرَة قروشٍ ثمناً لها .

نظرت الفتاةُ إلى « رامز » بخُبْث وأجابت :

ـــ تُزهّدُني بالهرّة ثم تريد شِراءها ؟ وما حاجتك أنتَ بها ؟ أبيعُها ؟ لا ! لا أبيعها ... بل أبيعها ! ولكنْ ... بعشرينَ قُرشاً ، وليس بعشرة قروش ...

كان « رامز » بحاجة ماسّة إلى الهرّة . ومدّ يده إلى جيبه يُخرجُ القروشَ الثمينة ويدفعها للفتاة الغريبة . ثم انصرف نحوَ المنزلِ ، وقهقهةُ الفتاةِ تُلاحقه ساخرةً ...

أطلقَ « رامز » هرّته في غرفته . وبعد مدّةٍ قصيرة تبيّنَ له أنّها صائدةٌ ممتازة . فقد قضت الهرّة على الفئران والجرذان ، فاطمأنّ « رامز » وارتاح.

*

كان « عبدالله » يملِكُ سُفُناً تقوم بأسفار بعيدة

للتجارة . وذاتَ يومٍ كانت إحدى هذه السُّفن تستعدُّ للإبحار في رِحلةٍ طويلة . فسأل « عبدالله » عمّاله إذا كانت لديهم بضاعةٌ يُرسلونها على مَتْنِ السفينةِ لتُباع في الجُزُر البعيدة ، فسلَّم كلٌّ منهم إلى الرُّبّان ما لديه من بضائعَ ذاتِ قيمةٍ أو فائدة . ولم يتخلَّفْ منهم إلّا « رامز » ، فهو لا يملك شيئاً يستحقُّ البيعَ أو المُبادلة ...

كان « عبدالله» عالِماً بوجودِ الهرَّة في غرفة « رامز» ، فقال له :

ـ لماذا لا تُرسلُ هرَّتك يا « رامز » ؟ مَن يَعلمُ ، فقد تأتيك بالفائدة من حيثُ لا تَدري .

حَسِبَ « رامز » أنّ ما قاله سيِّدُه كان دُعابةً فَحَسْبُ . ولكنَّ « عبدالله » كان جادّاً في ما

قال . فحَمَلَ الصبيُّ هرَّته إلى ربّان السفينة ، ثم عاد إلى غرفته كئيباً لفِراق ذلك الحيوان الذي خلَّصه من نُزَلاء غرفته المزعجين !

إنطلقت سفينة « عبدالله » ، محمَّلةً بنفيسِ البضائع والمُؤَن ، تَشُقُّ البحرَ وتَعْبُرُ الآفاق . وبعد سفرٍ طويل أرْسَتِ السفينةُ على شاطىء جزيرةٍ كبيرة نائية . كان سكّان الجزيرة من قبيلة مَتخلّفة ، لا رابطَ لهم بالعالَم المتمدِّن غيرُ السفنِ القليلة التي كانت تَقصِد جزيرَتهم في فترات متباعدة . وما إنْ ألقت السفينةُ مِرساتَها ، في ذلك اليومِ ، حتى هَرَعَ الأهْلُونَ رجالاً ونساءً وأطفالاً لمُلاقاة مَلاّحيها . كانوا يحملون من مَواردِ الجزيرة تُحَفاً وغِلالاً : فاكهةً استوائيّةً نادرة ، عاجاً ومعادنَ

ثمينة ، حجارة كريمة ، وآنية مذهبة ومفضضة صقلتها أيدي الصنّاع بالصبر والعناء .

وأفرغ البحّارة بطن سفينتهم التي حملت ما يحتاجه سكّان الجزيرة من ضروريّات وكماليّات . وهكذا ، وفي غمرة الضجيج والصياح ، تمّ تبادل البضائع بين الطرفين ، والكلّ سعيد بما باعه واشتراه .

ودعا زعيم القبيلة ربّان السفينة وضبّاطها لتناول الطعام على مائدته . كان بيت الزعيم كوخاً كبيراً مبنيًّا على ركائز خشبيّة متينة ، وقد غطّي سقفه بأغصان النخيل وبالأعشاب الجافّة . وحان وقت الغداء فجلس المدعوّون إلى المائدة حول مضيفهم . وما إن أحضرت الصحون حتى امتلأ الكوخ

فئراناً وجرذاناً ! إنقضّت تلك القوارض الخبيثة على الطعام فالتهمته قبل أن تمتدّ إليه يد أحد !..

إغتاظ زعيم القبيلة ، ثم تحوّل غيظه إلى يأس ، فقال لضيوفه معتذراً :

ـ إنّ ما شاهدتموه يحدث كلّ يوم . ولا حيلة لنا تجاه هذا الأمر . فما إن نقضي على بعض هذه الحيوانات اللعينة حتى تعود إلى الظهور بأعداد مضاعفة . ما العمل للخلاص منها ؟ إنّني لأهبّ ثروة لمن يرشدني إلى وسيلة للقضاء عليها .

وفكّر الربّان بهرّة « رامز » ، فقال للزعيم :

ـ لديّ في السفينة حيوان أليف يقيك شرّ

هذه الحيوانات . وأنا أَعِدُك بأنّك لن تعودَ إلى رؤية الجرذان والفئران في بيتك ...

أجاب زعيم القبيلة :

— وأنا أعدك بكيسٍ مَليء بالذهب والجواهر ، إذا صَحَّ ما قلت .

طلب الربّان من أحد ضبّاطه أن يُحضر هرّة « رامز » ، ففعَل . ولم يكنِ الزعيم قد شاهد مثلَها من قبلُ . وأُطلِقت الهرّة في الكوخ ، فراحت تُطارد الفئران والجرذان ، تَقتُل منها ما استطاعت . وفرّت الحيوانات الأخرى إلى الخارج فلم يبقَ لها أثر في الكوخ .

سُرّ الزعيم سروراً فائقاً . فشكر الربّانَ ، ثمّ قدّمَ له كيساً مليئاً بالذهب والجواهر، كما وعد ،

ثمناً لهرّة « رامز » .

*

كان « عبد الله » جالساً في مكتبه ذاتَ صباحٍ ، فقُرع البابُ ودخل عليه ربّان السفينة مسروراً . وأَعلم الربّانُ سيّدَه بما جناه من ربحٍ في تلك السَّفرة ، وقصّ عليه حكايةَ الهرّة ...

كان « رامز » يعمل في المنزل عندما جاءه رسولٌ يطلُب منه مرافقته إلى مكتب سيّده . ووصل « رامز » إلى المكتب ، فوجد بحّارةَ السفينة يُحيطون بـ « عبد الله » وهم يبتسمون . وظنّ الصبيُّ المسكين أنّ في الأمر حيلةً ، فارْتبَكَ واحمرّت وَجْنتاه . ثمّ قال لسيّده متوسّلاً :

— سيّدي ، أرجوكَ أن تدَعَني أعودُ إلى المنزل.

فهنالك أعمالٌ كثيرة لم أفْرَغْ منها بَعدُ .

وأجاب « عبدالله » برِفْق :

ـ لا تَضطرِبْ يا « رامز » ، بل اسمعْ هـذا الخبرَ السارّ : لقد باع الربّانُ هرّتك وأتاك بثروة



التاجر يعطي « رامز » نصيبه من الذهب

كبيرة ...

أفرغ « عبدالله » كيس الجواهر على الطاولة ، فكاد « رامز » يسقُطُ مَغْشِيّاً عليه من تأثير المفاجأة ! وبقي الصبيُّ طويلاً يَنظُرُ إلى الكنز مبهوراً . ثمّ نظر إلى سيّده وقال متلَعْثِماً :

ولكنْ ، ماذا أفعلُ بهذا المالِ كلّه ؟ خُذه أنتَ ، فهو ، ولا رَيْبَ ، يُعينك في تجارتك .

أجاب « عبدالله » بلهجةٍ حاسمة :

ـ لا يا بُنَيّ ، بل هذه الثروةُ حلالٌ لك . أحسِنِ التصرُّفَ بها ، وستكون فاتحةَ خيرٍ لمُستقبلك .

كان « رامز » طيّبَ القلب ، كريماً ، فوزّعَ الكثيرَ من الهدايا على الربّان والبحّارة . ولم يَنْسَ

أحداً من خُدّام المنزل ، حتى الطاهيةَ الخبيثة التي جارت عليه ، فقد نال كلٌّ منهم نصيبَه من المكافآت والهدايا ...

★

ألعاصمةُ الكبيرة تتأهّب لعُرْسٍ كبير ! إنّه عرس « رامز » و « نادية » ابنةِ « عبد الله » . فقد أصبحت « نادية » شريكةَ حياة القرويّ المغامر ، الذي أصبح شريكاً لسيّده القديم في تجارته الواسعة .

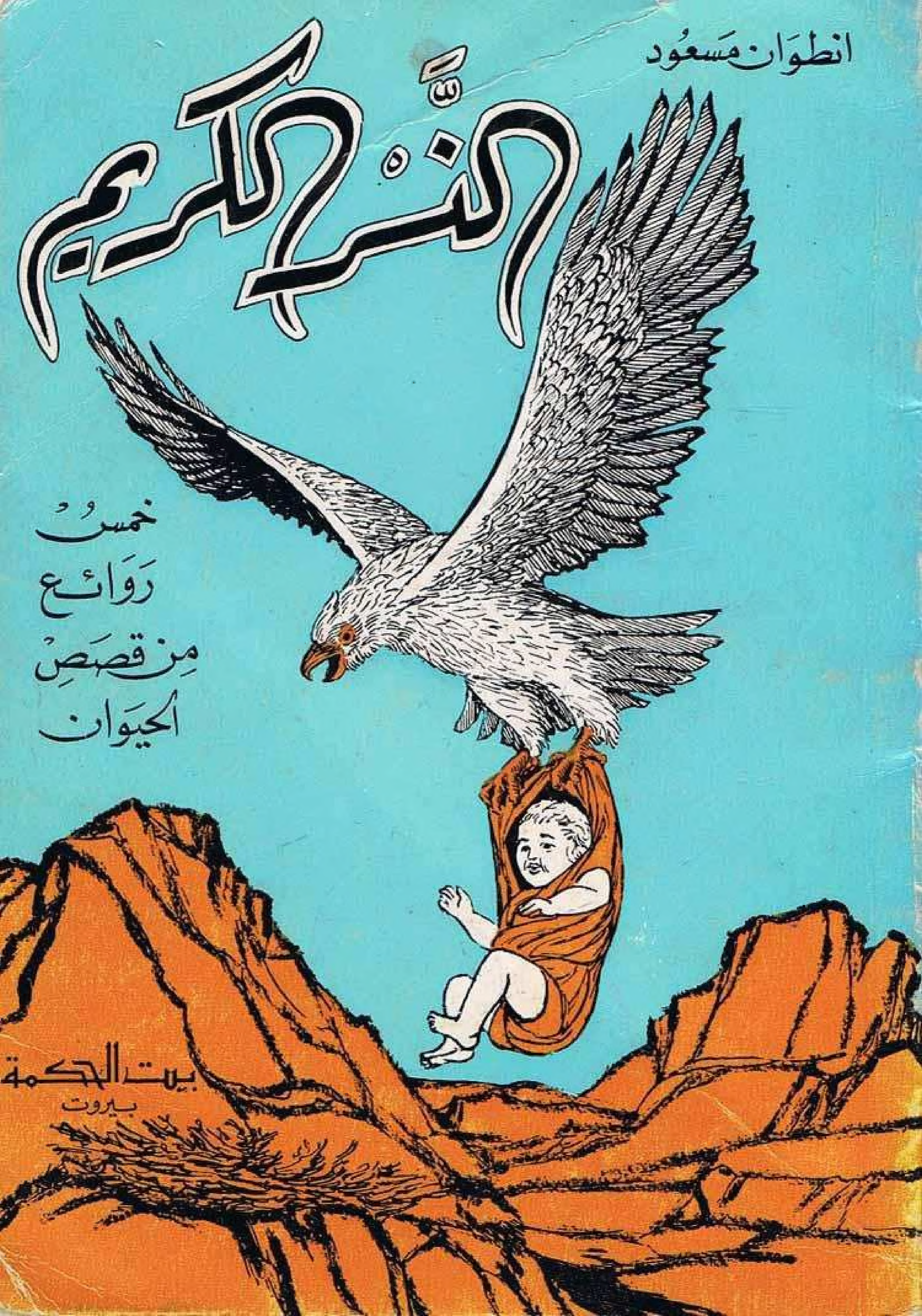
ومرّتِ الأيّام ، فإذا بزواج « رامز » و « نادية » زواجٌ موفّق سعيد ، وإذا بـ « رامز » رجلٌ من رجالات العاصمة المرموقين . وكان الناس جميعاً يقدّرونه ويحترمونه لاستقامته وشَهامته . ولكنّ الجاه والمال لم يُنسيا القرويّ قريتَه ومَسقطَ رأسه ، فقد

عاد إليها « رامز » يحمِل الخيرَ لسكانها في مشاريعَ عمرانيّة عديدة . ولو مَرَرْتَ اليوم في ساحة تلك القريةِ الصغيرة لرأيت تمثالاً لصبيٍّ صغير يحمِل هرّة، تمثال « رامز » وهرّته التي جَلَبَتْ له السعادة والثروة ...

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٧٥ ،
على مطابع دار غندور ش.م.م.
بيروت

١٩٧٥ - ٧ / ١١٢



انطوان مَسعُود
النَّسر الكريم
خمسُ
روائع
مِن قصصِ
الحيوان
بيت الحكمة
بيروت